تاريخ البطالسة

بطليموس سوتر (المنقذ)

لما فتح الاسكندر الديار المصرية على ما تقدم في الفصول السابقة من تاريخهِ كان في جيشهِ ضابط مكدوني اسمهُ بطليموس بن لاغوس ولا يبعد ان تكون صورة بلاد مصر وثروتها ارتسمتا في ذهنهِ وحبّبتا اليهِ العودة اليها حتى اذا عظم شأنهُ عند مولاهُ وصار من قوادهِ المعدودين وأُتمن معهم على ادارة مملكتهِ بعد وفاتهِ اسرع الكرة الى مصر ليتأثر بها

وكان الاسكندر قد ولّى على مصر رجلاً اسمهُ كليومانس فشدّد النكير على الاغنياء وابتزّ منهم الاموال لكنهُ كان يبعث اليهِ بالجزية كاملة وافية فلم يرَ سبيلاً الى عزلهِ . وقد اشار ديوستنس الخطيب الى هذا الوالي في احدى خطبهِ وقال انهُ رفع اسعار الحبوب فاضرّ بالاثينيين. لكن ذلك ليس مما يلام عليهِ كما سيجيء. واشار ارسطوطاليس اليهِ في كتاب سياسة المدينة فقال "انهُ لما وقعت المجاعة في البلاد المجاورة لمصر منع اخراج الحنطة منها ثم لما شكا اليهِ رؤساء الاقسام انهم لم يعودوا قادرين على جمع الاموال الاميرية بسبب ذلك اباح اصدار الحنطة من القطر المصري لكنهُ ضرب عليها مكساً باهظاً فجمع من ذلك مالاً وافراً ومنع شكوى رؤساء الاقسام. وابحر مرةً في القسم الذي يعبد اهلهُ التمساح فاختطف التمساح واحداً من عبيدهِ فجمع الكهنة وقال لهم انهُ عازم على الانتقام من التماسيح وامرهم ان يصطادوها لهُ فاشفقوا من ذلك وجمعوا لهُ قدراً طائلاً من الذهب فسكنوا غضبهُ . ولما امرهُ الاسكندر ان يبني مدينة المنارة (الاسكندرية) وينقل سوق قنوبس اليها ذهب الى قنوبس واخبر كهنتها واغنياءها انهُ اتاهم لينقلهم الى مكان آخر فجمعوا لهُ الاموال ورشوهُ بها لكي يبقيهم في اماكنهم فمضى عنهم ثم عاد اليهم ثانية لما وضع اساس المدينة وطلب منهم مبلغاً طائلاً من المال حاسباً انهُ الفرق بين اقامة السوق في بلدهم واقامتها في الاسكندرية . ولما قالوا انهم لا يستطيعون دفع هذا المال نقلهم كلهم الى المدينة الجديدة . ولما صار ثمن القمح عشرة دراهم جمع الفلاحين وسألهم عن السعر الذي يبيعونهُ بهِ فقالوا انهم يبيعونهُ بارخص مما يبيعون التجار فقال بل انا اشتريهِ منكم بثمن التجار (فاشتراهُ منهم بعشرة دراهم) وباعهُ باثنين وثلاثين درهماً . ثم جمع الكهنة وقال لهم ان نفقات المشاعر الدينية فاحشة جداً وانهُ لا بدَّ من هدم بعض الهياكل وصرف كهنتها . فترضوهُ بالمال منهم ومن خزائن هياكلهم مخافة ان يلقي فرقهم" انتهى كلام ارسطوطاليس

وغاية ما فيه ان كليومانس كان شديد الوطأة على الكهنة والتجار يبتزّ الاموال منهم ليغمر بها خزائن الحكومة وذلك اقل عيوب الولاة في تلك الايام

وكان الاسكندر قد اعطى خاتمهُ لبردكاس قبل وفاتهِ كأنهُ عهد اليهِ في الولاية او في النيابة بعدهُ فاشار بردكاس بانتظار ما يولد من زوجتهِ روكسانة وبأن يدير شؤون السلطنة اربعة من قوادهِ في غضون ذلك كما قلنا في الجزء الماضي فاختصَّ بطليموس نفسهُ بالديار المصرية واتى اليها وتامل اهاليها بالحلم والتفَّ حولهُ انصارهُ فعيَّأ الجنود خوفاً من بردكاس لانهُ كان يطمع بالاستيلاء على المملكة كلها وحالف انتباتر والي مكدونية وقتل كليومانس لانهُ كان من حزب بردكاس

وكان بطليموس حكيماً عادلاً معتدل المطامع كما سيجيء وابتدأ الخصام بينهُ وبين بردكاس على جثة الاسكندر فان بردكاس امر ان يؤتى بها الى مصر لتدفن في واحة سيوى حيث هيكل الاله امون ولكن لما بلغت الشام خاف من ان دفنها في مصر يفيد بطليموس فائدة ادبية فيستعزّ بها شأنهُ فامر ان ترسل الى ايجي وتدفن في مدفن ملوك مكدونية لكن بطليموس لقيها في بلاد الشام واتى بها الى مصر فوصلت الى منف اولاً ثم نقلت الى الاسكندرية ودفنت فيها وكان ذلك على غير ما يشتهي بردكاس لانهُ علا بهِ شأن بطليموس وحُسب مؤتمناً على ضريح مولاهُ. والظاهر ان جثة الاسكندر نقلت الى مصر في تابوت من الرصاص لا من الذهب وأُتي بها الى منف اولاً لان الطريق الى الاسكندرية تمرُّ بها. وقيل بل كان مراد بطليموس ان يدفنها في منف فابى رئيس كهنتها ذلك وقال خذوها وادفنوها في المدينة التي بناها ولكنها لم تنقل الى الاسكندرية في عهد بطليموس هذا بل في عهد خلفهِ

ومضت السنتان الاوليان بعد موت الاسكندر وبردكاس مشغول عن بطليموس بمحاربة خصومهِ في اسيا الصغرى وقبرص لان ملوك قبرص كانوا قد انحازوا الى بطليموس وانجدوهُ بالاساطيل فوجد بطليموس فرصة لفتح القبرات وضمها الى مصر ليستعين باهلها على تعبئة الاساطيل وهي مستعمرة يونانية مشهورة من ايام بندار وكانت قد خضعت للاسكندر مدة ثم استقلّت بشؤونها وتغلب عامتها على خاصتها فلجأ الخاصة الى بطليموس فضمها الى مصر لكنهُ لم يجاهر بالاستقلال ولا نبذ الطاعة لاخي الاسكندر وابنهِ بل كان يقول انهُ عامل على مصر من قبلهما ونقش اسمهما على السكة وعلى ما جدَّدهُ من الهياكل ولم يرضَ بردكاس بذلك ولا تخفى عليهِ غرض بطليموس فجيَّش الجيوش وقصد مصر سنة ٣٢١ قبل المسيح وكان بطليموس قد حصن الثغور واقام الحامية في الطينة والجنود التي اتت مع بردكاس اتت معهُ

مكرهة فعصت عليهِ وقتلتهُ. فخلا الجو لبطليموس في الديار المصرية وسهل عليهِ احتلال البلاد المجاورة فاحتلّ قبرص في السنة التالية وانضافها الى مملكتهِ فبقيت لذريتهِ من بعدهِ ثم التفت الى سورية فاستولى عليها لكن استيلاءهُ عليها كان قصير المدة لان انتيغونس (وهو قائد آخر من قواد الاسكندر الاربعة وكان نصيبهُ اسيا الصغرى) كان حينئذٍ مشتغلاً بالحروب في اسيا فلما فرغ منها بعد خمس سنوات عاد اليهِ فاضطرّ ان يغادرها مع انهُ تغلّب على ديمتريوس بن انتيغونس في واقعة غزة سنة ٣١٢ . وعاد الى سورية مراراً وكان يستولي عليها مرةً ثم يضطر الى مغادرتها أخرى وهو في كل نوبة يجلي اليهود منها ويأتي بهم الى مصر على ما قالهُ يوسيفوس. وقد اثبتت المكتشفات الحديثة ان اليهود كانوا كثاراً في القطر المصري في عهد بطليموس الثاني فلا يبعد نقلهم اليها في عهد الاسكندر وبطليموس الاول

وتوالت الحروب الى ان استتبت الولاية لانتيغونس في اسيا الصغرى وسلقوس في بابل وبطليموس في مصر وكسندر بن انتيباتر في مكدونية. وتهادن هؤلاء الولاة سنة ٣١١ على الاعتراف بسيادة ابن الاسكندر عليهم ولو بالاسم وعلى استقلال المدن اليونانية . ثم وثبوا كسندر على قتل الاسكندر وامهِ فتودي ببطليموس ملكاً في الديار المصرية وعباً اسطولاً كبيراً لانقاذ المدن اليونانية وقد لقبتهُ اهالي رودس بالمنقذ (سوتر) والهوهُ لانهُ انقذهم سنة ٣٠٦ وباهتمامهِ صار للقطر المصري شأن في البحر واتسع نطاق تجارتهِ وصناعتهِ وكثر نزول اليونان فيهِ

وقصدهُ انتيغونس الى الديار المصرية بثمانية الاف فارس وثمانين الف راجل وثلاثة وثمانين فيلاً و١٥٠ سفينة حربية و ١٠٠ سفينة للنقل . وكان ديمتريوس بن انتيغونس على الاساطيل فصدتها الرياح الشمالية الغربية واغرقت بعضها وبعد عناء شديد وصل الجيش الى الطينة فوجدها محصنة ومصب النيل مسدوداً بالقوارب ودخل اناس بين جنود انتيغونس يغرونهم بتركهِ والانضواء الى بطليموس وهو يهب الرجل منهم منوين والضابط وزنة . وحاول ديمتريوس النزول في بحيرة المنزلة وعند دمياط فلم يستطع ثم اصابهُ نوء كسر ثلاثاً من اكبر سفنهِ فاضطر ان يعود الى ابيهِ فجمع انتيغونس مجلساً حربياً واستشارهُ في الامر فقرّ قرارهُ على ترك مصر والعودة عنها لانهُ خاف ان يصيبهُ فيها ما اصاب بردكاس

ثم نشبت الحرب بين انتيغونس وابنهِ ديمتريوس من جهة وبين سلوقس وابنهِ انطيوخس ولسيماخوس وكسندر من اخرى فقتل انتيغونس وقسمت بلادهُ بين خصومهِ فاخذ بطليموس بلاد الشام ولو لم يحضر المعركة وجعل بيتي سفتهُ في صيداء من اشجار لبنان ثم اخذ قبرص من ديمتريوس ابن انتيغونس وضمها الى الديار المصرية فصارت مملكتهُ تشمل القطر المصري كلهُ وساحل البحر

الاحمر الى برنيكي وشط الفيل والقيروان وفلسطين وفينيقية ولبنان والبقاع وقبرص . وكانت سلطتهُ معترفاً بها في كثير من مدن اليونان واسيا الصغرى

ولما توطدت اركان مملكتهِ التفت الى استرضاء كهنة المصريين والتوفيق بينهم وبين اليونانيين وسبيل ذلك معروف وهو الدينار الذي يخضع لسلطتهِ كل حين فاكثر من الهبات للكهنة ومن الاوقاف للهياكل وانشأ هيكلاً لسرابيس في الاسكندرية لكي يؤلف بين اليونانيين والمصريين وانشأ ايضاً المدرسة والمكتبة الشهيرتين لكي تفوق الاسكندرية اثينا في العلم والعرفان. ويقال انهُ انما قصد من المدرسة والمكتبة مجرَّد الشهرة لا توسيع نطاق العلوم والفنون فكان شأنهُ في جمع الكتب شأن بعض الكبراء الآن الذين يجمعون كتباً كثيرة نادرة المثال للزينة ويقرّبون العلماء لاجل المباهاة . ثم ان ما فعلهُ من انشاء المدرسة والمكتبة انما كان اساساً لما فعلهُ ابنهُ بعدهُ كما سيجيء

وجارى المصريين في عبادتهم وفي ما كانوا يكتبونهُ عن ملوكهم ومن امثلة ذلك ما نقشهُ بين سنة ٣١١ و٣١٢ قبل المسيح وهذه ترجمتهُ

"في السنة السابعة (اي السابعة من ملك ابن الاسكندر) في بدء الفيضان تحت رعاية هورس الشاب الغني بالقوة رب التاجين محب الالهة الذين اعطوهُ جاه ابيهِ هورس الذهب رب العالم ملك مصر العليا ومصر السفلى سلطان البرين بهجة قلب امون مختار الشمس الاسكندر الحي الى الابد صديق الهة مدينتي بي وثب كان ملكاً في ارض الغرباء في قلب اسيا فصار فوز عظيم في مصر بطليموس اسمهُ" الخ

وكان بطليموس كثير النساء تزوج فتاة فارسية في بابل وقت الاحتفال العظيم بزيجة الاسكندر على ما تقدم وفتاة يونانية اسمها تايس (وهي غير تايس التي حرقت قصر برسبوليس) وولد لهُ منها ولدان. وسنة ٣٢١ ق.م تزوج اوريديكي ابنة انتيباتر والي مكدونية واكبر قواد الاسكندر وولد لهُ منها اولاد كثيرون سمى اكبرهم بطليموس ليخلفهُ على الديار المصرية وهو الملقب بالصاعقة وكان معها امرأة ارملة اسمها برنيكي لها اولاد اسم اكبرهم مغاس فتزوج بها ايضاً وتبنى اولادها وولى ابنها مغاس على القيروان . وكان الضرار شائعاً عند المكدونيين والمصريين ولاسيما عند ملوكهم وعظمائهم ولذلك لم يؤاخذ بطليموس بما فعل . واحبَّ برنيكي وفضلها على سائر نسائهِ وألبسها تاج الملك وولدت لهُ ولداً جعلهُ ولي عهدهِ وهو بطليموس الثاني وتنازل لهُ عن الملك سنة ٢٨٥ ق.م وبقي سنتين في بلاطهِ كانهُ من عامة الناس وتوفي وهو في الرابعة والثمانين من عمرهِ . وسيأتي الكلام عن بطليموس الثاني في الجزء التالي